

العقل عند الإمام الغزالي

الأستاذ الدكتور
عبد العظيم الديب
أستاذ ورئيس قسم الفقه والأصول

يناقش هذا البحث تلك الهجمة المريبة على حجة
الإسلام الغزالي ، واتهامه ، بأنه صاحب الفكر الذي
أدى إلى ضياع الحضارة الإسلامية وانتكاسها .

[الإمام أبو حامد الغزالي ، أحد أعلام هذه الدنيا ، وأحد أعمدة الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي ، وأحد المجددين الذين ابتعثهم الله سبحانه - تحقيقاً لوعده رسولنا صلى الله عليه وسلم^(١) - ليجددوا لهذه الأمة دينها . لاشك في كل ذلك . ومن هنا كثرت الدراسات ، وتعددت البحوث التي تناولته ، وتباينت الآراء حوله . ولما كان معروفاً - رضي الله عنه - بدعوته إلى تطهير القلب ، وتركية النفس ، والتوجه إلى الله جل وعلا بقلبٍ مقطوعٍ عن علائق الدنيا ، ونفسٍ مطهرة مصفاة عن كل شهواتها وحفظها - لما كان ذلك وقع البعض في خطأ أو وهم ، واتهموا أبا حامد ، بأنه انتهى إلى عداوته للعقل ، وبالتالي للجد والنشاط ، والكفاح ، والابتكار والاختراع . ويحاول هذا البحث أن يضع هذه القضية في نصابها ، ويجلو وجه الحق فيها ، والله الموفق للصواب] .

(١) أخرج أبو داود في الملاحم ، والحاكم في الفتن وصححه ، والبيهقي في كتاب المعرفة ، كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة ، من يجدد لها دينها » والمتفق عليه أن حجة الإسلام الغزالي هو مجدد المائة الخامسة .

تهمّة ولا دليل :

لقد اتهم الغزالي بأنه عدوّ العقل ، وعدو الفكر الحر ، وبأنه استطاع بحملته الجريئة ، ومقدرته البارعة ، أن يُسقط العقل من عليائه وأن يزيله من سبائه ، وأن يحط من شأنه ، ويُخرس من صوته ، وبالتالي كَبَت الفكر الحر ، وفزّعه ، وأصابه بالذعر ، والهلع ، حتى اختفى من حياة الأمة الإسلامية ، أو كاد ، ولم يعد يترأى إلا على استحياء .

وبعصر الغزالي ، أو بالتحديد بانتصار منهج الغزالي ، ومدرسة الغزالي ، وفكر الغزالي ، اتجهت الحضارة الإسلامية إلى الانحدار ، ثم الانهيار ، فيحملون الغزالي كلّ ما أصاب الأمة الإسلامية من تخلف ، وجمود وضعف .

وذلك - في رأيهم - لأن دعوة الغزالي إلى التصوف ، والزهد في هذه الحياة الدنيا ، وانسحابه من ميدان المصاولة والمطاولة ، والتأليف والمناظرة إلى الخلوة والتأمل ، ثم إعلانه عدم ثقته بوسائل المعرفة ، وشكّه فيما أقيم عليها من علوم ومعارف ، واعتماده (الكشف والمشاهدة) وسيلةً للعلم والمعرفة ، كل ذلك كان تهويًا من شأن العقل ، وقضاءً على مكانته ومكانه .

وكذلك أيضاً كانت حملته على الفلسفة والفلاسفة - وهم أصحاب الفكر الحر - قضاءً على التفكير والمفكرين ، وإرهاباً لكل صاحب رأي ، ووأداً لكل نظر ، وبصر ، كذا قالوا . ومن عجب أنهم قالوا هذا باسم البحث والعلم ، قالوه باسم سلطان الأكاديمية ، وطيلسان المنهجية ، ورداء الجامعية ، وشارة الأستاذية .

وإنه لمن المفيد جداً أن نبحث عن أصول الأفكار وجذورها ، وقد حاولت أن أتبع صاحب هذه الفكرة (الأول) : أول من قال بهذه التهمة ، وألصقها بإمامنا حجة الإسلام ، حتى شاعت وأصبحت مقولة شبه بدئية لدى طائفة من كتاب عصرنا ، بل لدى مدرسة كاملة متميزة بمن يحملون رايات الإصلاح ويطبّون لأمتنا ، تشخيصاً لدائها ، ووصفاً لدوائها .

حاولت ذلك : الوصول إلى أول من ألقى هذه التهمة في وجه الغزالي - فلم أصل بعد .
ومع ذلك فما وصلتُ إليه قد يكون له مدلول .

* * *

كتب د. أنطونيوس كرم ، كتاباً بعنوان :

(العرب أمام تحديات التكنولوجيا)^(١)

عقد فيه فصلاً بعنوان (تأملات في أسباب التخلف العربي)^(٢) انتهى فيه إلى « أن غياب الفكر المبدع المتجدد - الذي هو ركيزة أساسية للتطور الحضاري - يشكل جوهر التخلف الفكري ، وإذا كان الفكر المبدع هو أحد محركي الحضارة ، فإن (العقل المبدع) هو المحرك الوحيد للفكر المبدع الخلاق » . وراح يتساءل عن سرّ « الذبول المبكر للحضارة العربية وللحدا العربي ، بعد أن حققنا في فترة قصيرة جداً إنجازات رائعة ومدوية بكل المقاييس » .

ثم أجاب قائلاً : « إن الكثيرين من المحللين يرون أن انتصار المؤسسة السياسية والثقافية التي جسدها الإمام الغزالي أحسن تجسيد هي التي أوقفت المدّ الفكري عند العرب وشكلت ، منذ ذلك الحين سدا في وجه كل إصلاح »^(٣).

وراح يبسط هذه الفكرة ، ويوضحها ، فقال : « ويرى الدكتور نقولا زيادة^(٤) ، أن احتكاك الفلاسفة والمفكرين العرب بالفكر اليوناني أكسبهم الكثير من المنطق وطرق المحاورة عند الفلاسفة اليونانيين ، فبدأ الفلاسفة العرب المتأثرون بالفكر اليوناني يأخذون على عاتقهم مهمة التوفيق بين الدين والعقل ، أو بين الشريعة والحكمة ، وبلغ هذا ذروته في محاولة ابن

(١) سلسلة (عالم المعرفة) شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت الكتاب رقم ٥٩ محرم - صفر ١٤٠٣ - نوفمبر ١٩٨٢ .

(٢) من ص ١٥٩ - ١٩٦ .

(٣) ص ١٦٨ .

(٤) الأبعاد التاريخية لأزمة التطور العربي - بحث ألقاه في ندوة (أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي) الكويت ٧ - ٢ ابريل ١٩٧٤ .

رشد في مرحلة لاحقة - وهو أكثر الفلاسفة العرب الذين فهموا وتعمقوا بالفكر اليوناني ، وبالأخص بمنطق أرسطو - التوفيق بين العقل والإيمان ، وهكذا بدأت الخصومات الحادة بين الفقهاء والفلاسفة ، وبالأخص المتصوفين منهم (على أساس أن التصوف أساسا هو محاولة للوصول إلى الخالق ، وإلى الحكمة الإلهية دون المرور بالشرعية الإسلامية) .

وانتهت الخصومة بانتصار الفقهاء على الفلاسفة ، بانتصار الغزالي على ابن رشد الذي أحرقت كتبه . . . ومع نهاية المعركة بين الفقهاء والفلاسفة خمدت الحركة الفكرية والفلسفية العربية إلى أمد طويل ،^(١) .

ويؤكد هذا المعنى أيضاً ، باستشهاد جديد ، فيقول : « ويرى الشاعر والكاتب العربي المعروف (أدونيس) أن انتصار الغزالي والمؤسسة الثقافية التي يُجسدها كان انتصارا للفكر التقليدي ، وهزيمة للتجديد والإبداع ويستشهد أدونيس بقول الإمام الغزالي المشهور : « السلامة في الاتباع والخطر في البحث عن الأشياء ، والاستقلال ، ولا تكثر اللجج برأيك ومعقولك ، ودليلك وبرهانك ، وزعمك أني أبحث عن الأشياء لأعرفها على ما هي عليه ، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد أندرس ، وما انكب عليه الناس ، فأكثره مبتدع ومحدث - وأصبح - مازال الكلام لأدونيس - من يخترق ما شرعه الأسلاف أو أسسوه كأنه يقتل هؤلاء الأسلاف أنفسهم ، وهكذا تأصل التمسك بالماضي في الحياة العربية وزادت نزعة التعلق بالعلوم ورفض المجهول ، بل والخوف منه »^(٢) .

شنشنة أعرفها من أخزم :

وفي محاولة منا للبحث عمّن يكون قد سبق بإلقاء هذه التهمة في وجه الغزالي ، نظرتُ في كتب سلامة موسى^(٣) ، فوجدته فعلا قد سبق بها ، وستجاوز غمزه ولمزه ، ومحاولته إثبات أن

(١) العرب أمام تحديات التكنولوجيا : ١٦٩ .

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٣) كاتب قبطني مصري توفي سنة ١٩٥٨م كان صاحب هدف وغاية ، تتولى دار المستقبل للنشر بالقاهرة والاسكندرية المملوكة لأولاده نشر مؤلفاته وإذاعتها ، تحت عنوان (تراث من الكفاح الهادف) وقرأ عنه بعض إشارات في كتاب أستاذنا العلامة محمود شاكر « أباطيل وأسار » فعندها تعرف طبيعته وما يدعوا إليه .

الإسلام في حقيقته عدو للتفكير وللعقل وحرية الرأي ، ونكتفي بما يتصل بإمامنا الغزالي ، فقد استشهد ببعض أقوال الغزالي ، ثم جاد عليه بهذا التعقيب ، فقال : « وهذا كلام يقطر منه الإخلاص والنزاهة ، ومع ذلك لم يكن الغزالي ولياً أبه يتمسح به الناس ويلبس المرقعات ، ويتواجد بالصيحات ، بل كان رجلاً مثقفاً ذكياً درس المنطق والفلسفة ، وأكب على فهم الإنجيل والتوراة^(١) ، فهو إذا شرح الإسلام فإنما يشرحه على الوجه الذي يجب أن يفهم عليه ، وهو إذا حكم بتكفير أحد من المسلمين ، فإنما يفعل ذلك مدفوعاً بقوة إيمانه . وماذا كان أثر هذا العالم المسلم في الشرق العربي ؟

كان أثره أنه قاوم الفلسفة حتى هدمها ، وكفر جميع من يدرسها ، وكان بعد ذلك أقوى أساس بُني عليه اضطهاد الفلاسفة والمفكرين ، حتى انتقلت الفلسفة من الشرق إلى الغرب ، أي إلى الأندلس ، وليس يمكنك أن تنقم شيئاً على الغزالي من هذه الوجهة ، سوى أنه كان ينظر نظراً دينياً ضيقاً^(٢) .

ثم علق على عباراتٍ أخرى نقلها عن الغزالي ، فقال : « ومن هذه القطعة يرى القاريء أن الغزالي يفهم ما يقول تمام الفهم ، ومحكم على من يخالفه في رأيه الديني بالزندقة ، ويجزم في حكمه ، والمسافة بين الحكم بالزندقة والحكم بالقتل قريبة جداً^(٣) .

ثم يتهمك بالغزالي ، فيقول : وقد عاش الغزالي بعد أرسطو بنحو ألف وأربعمائة سنة ، ومع ذلك لم يبخل عليه بالتفكير ، وعلى كل من اتبعه من فلاسفة المسلمين^(٤) .

ولم ينس أيضاً أن يشبه بالغزالي بالقسيس البروتستانتي المتعصب (كالفرن) الذي كان يحرق معارضيه بالنار^(٥) .

(١) كذا .

(٢) حرية الفكر وأبطالها في التاريخ : ٩٤ - دار المستقبل بمصر (بدون تاريخ) .

(٣) المصدر السابق ص ٩٥ .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) المصدر السابق ص : ١٧٢ .

وفي الحق أن سلامة موسى لا يعنينا في هذا الأمر كثيرا ، فهو ليس من أهل هذا الشأن ، ولكننا كنا نرجو أن يميلنا على مصدره الذي استقى منه هذا الرأي في الإمام الغزالي ، ولكنه لم يفعل .

ومن قالوا بهذا الرأي ، واتهموا الإمام الغزالي بهذه التهمة المستشرق المتفرنس « محمد أركون » في بحثه الذي ألقاه أمام الملتقى الفكري الثامن عشر بمدينة الجزائر يوليو ١٩٨٤م حيث كان يتحدث عن تجديد التفكير الديني .

وقد أشار إلى شيوع هذه الفرية عن الإمام الغزالي ، الأستاذ الجليل الدكتور سليمان دنيا حين قال : « وقد غفل قوم في القديم والحديث ، وظنوا أن الغزالي يحمل على التفكير العقلي جملة ويكرهه ، ويحاربه ، ويريده ألا يكون . ومن هنا قالوا ما قالوا : من أن الغزالي قد ضرب الفلسفة - يعنون كلها - ضربة لم تقم لها بعد في الشرق قائمة .

ومن الغريب أنه حتى في عصرنا هذا ، بعدما تيسر طبع كثير من الكتب ، وتيسر تبعا لذلك الاطلاع على كثير من كتب الغزالي ، مازال بعض المنتسبين إلى العلم ، والواضعين أنفسهم بين أهله في مقام الصداقة يجهلون هذه الحقيقة ، وقد يبلغ بهم الأمر أن يزعموا أن الإسلام - فضلا عن الغزالي يكره الفلسفة ويحاربها»^(١).

وكذلك يؤكد شيوع هذه الفكرة الخاطئة عن الغزالي ، أستاذنا الدكتور محمود قاسم^(٢) ، فيقول : « من المشهور أن الغزالي قد فضل التصوف على العقل ، بل يقال إنه حفر العقل ، وغض من شأنه »^(٣).

ثم يؤكد أنه تتبع كتب الغزالي ، فانتهى إلى عكس هذا القول وثبت لديه أن الغزالي يجد العقل ، ويتق به ويجعله ميزان الحق . ولكنه لم يُشر - مثل سيهان دنيا - إلى أصحاب هذه

(١) سليمان دنيا ، مقدمة تهافت التهافت ، ١٨/١ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠م .

(٢) أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة والعميد الأسبق لكلية دار العلوم ، وأحد الأعلام في مجال الفلسفة الإسلامية رحمه الله .

(٣) محمود قاسم ، دراسات في الفلسفة الإسلامية : ١٤٧ - دار المعارف القاهرة ١٩٦٧م .

التهمة ، وإلى من ابتدع هذه الفرية ، ولا من يرددها ، وعذرهما في ذلك هو « الشيوخ » و « الاشتهار » فكم من آراه تشيع وتنتشر ، وتناقلها الأقلام ، وتداولها الألسنة ، وتتعاورها الصحف والمجلات ، وتبادلها الكتب والمراجع ، حتى تصير باللحاجه والإلحاح حقائق ، وثوابت ونظريات ، وبمعنى أصح يتخيل المتخيلون أنها حقائق ونظريات فلا يُسأل عن مصدرها ، ولا عن أهلها ، وإذا كان التبع في قضيتنا هذه قد أرانا (سلامة موسى) ، ثم (نقولا زيادة) ، ثم (أدونيس) ، ثم (أنطونيوس كرم) ثم (أركون) فهل يكون لهذه الأسماء مدلول ، ولهذا التسلسل مغزى ؟؟

وبالقطع ليست هذه بداية السلسلة ، وقد لا تكون هذه الحلقات متتابعة أو متالية ، ويبقى على الباحث أن يبذل جهده ووسعاه ، حتى يعرف من أين نشأ هذا القول ، ومن أين بدأ هذا الاتهام لأبي حامد ، وذلك إرضاء للحقيقة ، قبل أن يكون إنصافا للغزالي ، وكأني على يقين أن وراء هذا فكر مشبوه ، وأقلام مسمومة . وندع هذا إلى حين يتم البحث والكشف عن أصول هذه الفكرة أو الفرية وجذورها (وما أكثر ما في ثقافتنا من قضايا زائفة تحتاج إلى البحث عن أصولها وجذورها !!) .

ومن العجيب أن ابن رشد الذي تصدى للغزالي ، بالرد والنقض والهجوم ، كان أصدق رأيا ، وأدقّ فهما لموقف الغزالي من باحثي عصرنا و « دكاترة زماننا » ، فلم يتهم الغزالي بما اتهموه به ، وكان دقيقا غاية الدقة مدركا غاية الإدراك ، « فلم يشأ أن يسمي كتابه - الذي رد به على الغزالي - تهافت الغزالي ، وإنما سماه « تهافت التهافت » ليؤكد حصر الخصومة والخلاف ، في خصوص القضايا التي خصم فيها الغزالي الفلاسفة في كتابه « تهافت الفلاسفة » (١) .



(١) سليمان دنيا - مقدمة تهافت التهافت - ١٨/١ ، بتصرف ، مرجع سابق .

وخلاصة ما اتهم به الغزالي ، على السنة هؤلاء وغيرهم هو : أنه ضد العقل :

- فهو ضد العقل حين هدم الفلسفة وأذل كبرياءها .
- وهو ضد العقل المبدع حين كفر الفلاسفة .
- وهو ضد العقل حين تصوف ودعا إلى المكاشفة والمشاهدة .
- وهو ضد العقل حين انسحب من المجتمع وترك رئاسة (النظامية) ونشر العلم والتدريس والمناظرة .
- وهو بهذا كله كان سبب تأخر العالم الإسلامي وانحطاطه .

وسنحاول في الصفحات التالية أن نوجز الحديث عن أبرز هذه النواحي لنرى كم تجنى هؤلاء (المتوسمون بالعلم) على الحقيقة ، وعلى المنهج وعلى البحث العلمي ، وعلى الأكاديمية التي يتشدقون بها قبل أن يتجنّبوا على حجة الإسلام الغزالي .

الغزالي والفلسفة والفلاسفة

ماذا نعني بالفلسفة ؟

إن كانت الفلسفة عملاً فكرياً ، ومحاولات عقلية يراد بها الاهتداء إلى الصواب والوصول إلى الحق ، فأعمال الغزالي كلها ممارسات فكرية ، ومحاولات عقلية ، بحثاً عن الحق والصواب .

فإن كان ابن سينا والفارابي ومن نحا نحوهما ، قد سلكوا مسلكاً عقلياً صرفاً فيما اهتدوا إليه واعتقدوه رأياً لهم ، فإن الغزالي قد سلك مسلكاً عقلياً صرفاً فيما ذهب إليه من تزيف هذه الآراء ، وهدم تلك الأفكار^(١) .

(١) راجع في هذا المعنى : سليمان دنيا : مقدمة كتاب تهافت الفلاسفة : ٥ - ١٢ .

فالغزالي إذاً فيلسوف في هدمه هذه الفلسفة .

وعلى ذلك يكون إطلاق اسم الفلسفة على ما ذهب إليه ابن سينا والفارابي ومن نحا نحوهما ، دون ما أتى به الغزالي وغيره - تحكما لا معنى له ، ولا سند له من عقل ، أو اصطلاح .

اللهم إلا إذا كان منظورا عند هذا التخصيص إلى مصدر الآراء التي جاء بها ابن سينا والفارابي من فلاسفة اليونان ، أي أن الفلسفة ، هي ما استعاره المفكرون المسلمون من أرسطاطاليس وأفلاطون ، وحاولوا التلفيق بينها وبين الإسلام ، أو تطويع الإسلام لها .

إن كانت الفلسفة بهذا المعنى الضيق ، فقد هدمها الغزالي ، وحق له أن يهدمها ، فهي بهذا المعنى علمُ الأصنام عند اليونان ، على حد تعبير المفكر الإسلامي - علامة الهند أبو الحسن الندوي - مد الله في عمره .

ثم إن الغزالي في هدمه للفلسفة بهذا المعنى أكثر (عقلانية) من ابن سينا والفارابي ، فهو ضد التقليد ، تقليد أرسطاطاليس وأفلاطون ، ضد نقل الأفكار والتعبد لها مهما كان أصحابها ، ومهما كانت أساؤهم .

بل هو يفسر قبول ابن سينا والفارابي لهذه الآراء الوافدة ، والأفكار الغربية بانبهارهم بأسماء طنانة ، وألفاظ رنانة ، وهذا قوله في مقدمة التهافت :

« وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسماء هائلة : كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وأمثالهم ، وإطباب طوائف من متبعيهم وضلّالهم في وصف عقولهم ، وحسن أصولهم ، ودقة علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والإلهية ، واستبدادهم - لفرط الذكاء والفتنة - باستخراج تلك الأمور الخفية ، وحكايتهم عنهم أنهم - مع رزانة عقولهم ، وغزارة فضلهم - منكرون للشرائع والنحل ، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل ، ومعتقدون أنها نواميس مؤلفة ، وحيل مزخرفة .

فلما قرع ذلك سمعهم ، ووافق ما حُكى من عقائدهم طبعهم ، تجملوا باعتقاد الكفر ، تحيزا إلى غُهار الفضلاء بزعمهم ، وانخرطا في سلكهم ، وترفعا عن مسابرة الجماهير والدماء ، واستنكافا من القناعة بأديان الآباء ، ظنا بأن إظهار التكاسيس في النزوع عن تقليد الحق ، بالشروع في تقليد الباطل جمال ، وغفلة منهم عن أن الانتقال إلى تقليدٍ عن تقليدٍ خُرق وخبال ، فأية رتبة في عالم الله أحسن من رتبة من يتجمل بترك الحق المعتقد تقليدا ، بالتسارع إلى قبول الباطل تصديقا ، دون أن يقبله خبرا وتحقيقا !!! ، والبله من العوام بمعزل عن فضيحة هذه المهواة ، فليس في سجيبتهم حُب التكاسيس بالتشبه بذوي الضلالات ، فالבלاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بترء ، والعمى أقرب إلى السلامة من بصيرة حواء^(١) .

فهو إذاً ضد التقليد داعٍ إلى استخدام العقل والفكر ، وعدم قبول الآراء مهما كان أصحابها .

وقد أشار إلى هذا المعنى أستاذنا الدكتور / محمود قاسم حين قال^(٢) :

« أما الفلاسفة الذين يظن أنه يعتمدون على الأدلة العقلية ، وعلى المعرفة اليقينية في تقرير معتقداتهم ، وفي محاولة التوفيق بين آرائهم والدين ، والذين يخيّل إليهم أنهم أنصار العقل ، وأبعد الناس عن التقليد - نقول : إن هؤلاء لا يبرؤون في نظر الغزالي ، من الركون إلى منهج التقليد . ودليل ذلك ما أخذه فلاسفة الإسلام ، تقليدا عن فلاسفة اليونان ، وما مزجوا به آراءهم من معتقدات باطلة لا تتفق وروح دينهم » .

ومن هنا كان الغزالي على حق ، حين عبر عن شعوره ، نحو الفلاسفة بهذا المعنى الضيق - بالازدراء^(٣) ، إذ رآها ادعاءً وانتحالا لآراء الأقدمين .

(١) مقدمة التهافت : ٦٠ .

(٢) دراسات في الفلسفة الإسلامية : ١٨٦ - دار المعارف - القاهرة : ١٩٦٧ م .

(٣) المنقذ من الضلال (٨٧) . مرجع سابق .

فما هدمه الغزالي ليس الفلسفة الإسلامية ، ذلك أن مفكري الإسلام الممثلين لروح الإسلام ، لم يقبلوا الفلسفة الأرسطاليسية ، ولا المنطق الأرسطاليسي ، « ونحن نتنكب الصواب إذا قلنا : إن ابن سينا يمثل الإسلام ولا يمثله الغزالي . لم يكن ابن سينا مفكرا مسلما على الإطلاق ، ولم يمثل الحضارة الإسلامية أدنى تمثيل . ولا يتصور عاقل أن يكون « الشفاء » ممثلا لفكرة إسلامية وروح إسلامي ، بينما يمثل « تهافت الفلاسفة » للغزالي روح الإسلام الحقيقي .

ولعلّ ابن رشد تنبه إلى هذا . فكتب (مناهج الأدلة) في صورة إسلامية بينما كانت شروحه لكتب أرسطو وكتابه (تهافت التهافت) خروجاً على الفكر الإسلامي ومتابعة لروح يوناني لفظه الإسلام لفظاً تاماً^(١) .

فهو إذاً هدم الآراء المجلوبة ، أي هدم (التقليد) ولم يهدم الفكر ، ولم يهدم الفلسفة . فهو قد وضع لنفسه دستوراً لم يجد عنه قيد شعرة ، وهو « معرفة الرجال بالحق ، لا معرفة الحق بالرجال » ولذا كان يوصي من يطلع على الفلسفة أن يجتهد لنفسه ، وألا يعطل عقله تقليداً لأرسطو وأفلاطون .

وهذا الشعور بالازدراء نحو هؤلاء المتعلمين و (المتكاسين) هو الذي يفسر لنا ذلك الأسلوب اللاذع والنقد الساخر الذي نراه في كتابه (تهافت الفلاسفة) ، فمع أن الغزالي في هذا الكتاب فيلسوف عملاق ، نجده قد مزج بذلك الفكر الجاد سخريةً مرة من الفلاسفة ، تصل إلى حد (السباب) كما سهاها الأستاذ الجليل سليمان دنيا^(٢) رحمه الله .

ويكفي مثالا على ما نقول ، ما يطالعك به الغزالي في مقدمة كتابه (تهافت الفلاسفة) من مثل قوله :

(١) د . علي سامي النشار . نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام : ١٦٧/١ .

(٢) في مقدمته لتهافت التهافت : ٢١ .

فلما رأيت هذا العرق من الحماقة نابضا على هؤلاء الأغبياء ، انتدبت لتحرير هذا الكتاب ، ردا على الفلاسفة القدماء ، مبينا تهافت عقيدتهم ، وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالإلهيات ، وكاشفا عن غوائل مذهبهم وعوراته التي هي - على التحقيق - مضاحك العقلاء ، وعبرة عند الأذكياء ، أعني ما اختصوا به عن الجماهير والدهماء من فنون العقائد والآراء ، هذا مع حكاية مذهبهم على وجهه ، ليتبين هؤلاء الملاحدة تقليداً ، اتفاق كل مرموق من الأوائل والأواخر على الإيمان بالله واليوم الآخر^(١) .

وما بالننا نذهب بعيدا وعنوان الكتاب نفسه ينطق بما نريد أن نقوله . ولقد أخذ الدكتور سليمان دنيا على الغزالي مزجه السخرية والسباب بالفكر والفلسفة ، قائلا : « إن السباب ليس فلسفة ، ولا يصلح أن يكون لونا من ألوانها ، حتى ولو على سبيل المجاز . ومع ذلك وقع فيه هذان الفيلسوفان »^(٢) .

ولكن عذر الغزالي ، أنه جاء فوجد الفلسفة تطل على المجتمع من عل ، وتهاجم الإسلام ، وغاية ما يملكه علماء الكلام أن يردوا التهم الموجهة إلى الإسلام ، ويبرروا موقفه ، ويلتمسوا العذر لعقائده ونظرياته ، وغاية ما يملكه الفقهاء أن يجرموا دراسة الفلسفة ، ويحذروا من الاطلاع عليها .

فكان على الغزالي أن يُنزل الفلسفة من عليائها ، بعدما أحاط هؤلاء أنفسهم بهالة من التضخيم والتعظيم ، وصاغوا كلامهم عبارات مبهمه مقفلة ، إيجاء بأنهم يعلمون ما لا يمكن أن يعلمه غيرهم ، ويستطيعون ما لا يمكن أن يستطيعه غيرهم ، فكان على الغزالي أن يكشف هذا الزيف ويعرّي هذا الكبرياء ، وكانت السخرية ، والازدراء ، بعض وسائله ، فهو ليس أكاديمياً بارداً ، وإنما هو داعية مجاهد ، يجيش قلبه بالعواطف ، ويتفجر فؤاده بالمشاعر ، ويشتعل وجدانه بالانفعال ، فأنى لمثله أن تخرج أفكاره في ثوب رخامي

(١) مقدمة الغزالي لتهافت الفلاسفة : ٦١ .

(٢) مقدمة تهافت التهافت : ٢١ ويقصد الغزالي وابن رشد .

بارد ، إن الأفكار من مثله طعناتٌ في ميدان ، وطلقاتٌ في معركة ، ونيرانٌ في معمعة .
فلماذا يؤخذ عليه أن يصوغ فكره في عبارةٍ حادة أو ساخرة ، ما دام صحيحَ الفكر ، صادقَ
البرهان ، دقيقَ الاستدلال .

البحث يثبت صدقَ الغزالي :

يقول أستاذنا الدكتور / محمود قاسم^(١) : « وفيما مضى كنا لا نخفي عجبنا من إلحاح
الإمام الغزالي في تكفير أبي نصر الفارابي ، وابن سينا مع تسامحه وتساهله مع جميع المقلدين
الآخرين ، مسلمين أو غير مسلمين ، لكن بدأت تخف حدة هذا العجب . ولم نعد نؤمن
بأن الفارابي ، وابن سينا اجتهدوا في التوفيق بين الدين والفلسفة عن رغبةٍ مخلصه ، لا من
أجل تقويض الدين في نفوس المؤمنين به ، وأنها بعيدان عن منزلة دعاة الباطنية مثلا ، ممن
خصهم الغزالي أيضاً بكثيرٍ من عنايته » .

بأسلحتهم حاربهم :

كان الغزالي أول من دخل على الفلاسفة بيتهم ، وهدمه عليهم ، « ولم يتهور الغزالي في
الهجوم على الفلسفة ، ولم يكن فيه مقلداً لغيره ولا ضيق التفكير ، إنه درس الفلسفة
أولا . . . وكان يؤمن بأنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك
العلم ، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويمجاوز درجته ، فجد
واجتهد في دراستها ، ومعرفة حقيقتها وأغوارها ، حتى اطلع على منتهى علومهم »^(٢) .
ومن هنا جاء نقده للفلسفة نقدَ الخبير ببواطنها ، العليم بمواضع الخلل في مكانها ،
فززلها زلزالا .

يقول معاصره الإمام القاضي أبو بكر ابن العربي ، بعد أن ذكر أن محاولات علماء الإسلام
للرد على الفلاسفة قبل الغزالي ، كانت بلغةٍ غير لغتهم ، فلم يفهموها ، ونسبوا علماء

(١) دراسات في الفلسفة الإسلامية : ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) أبو الحسن الندوي : رجال الفكر والدعوة .

الإسلام إلى الجهل والعجز ، فلما جاء الغزالي « انتدب للرد عليهم بلغتهم ، ومكافحتهم
بسلحهم ، والنقض عليهم بأدلتهم ، فأجاد فيما أفاد ، وأبدع في ذلك ، كما أراد الله
وأراد ، وبلغ في فصيحتهم المراد ، فأفسد قوهم من قوهم ، وذبحهم بمداهم ، فكان من
جيد ما أتاه ، وأحسن ما رواه ورآه فيما يختصون به دون مشاركة أهل البدع لهم كتابا سماه
(تهافت الفلاسفة) ظهرت فيه مُنته ، ووضحت في درك المعارف مرتبته ، وأبدع في
استخراج الأدلة من القرآن ، على رسم الترتيب في الوزن الذي شرطوه ، على قوانين خمسة
بديعة في كتاب سماه (القسطاس)^(١) .

وإذا كان الغزالي « يذبحهم بمداهم ، ويصوب أسلحتهم إليهم » ليس ذلك فلسفة .

فكيف يقال : إنه هدم الفلسفة ؟؟ .

الفيلسوف يهدم الفلسفة :

كان الغزالي فيلسوفا وهو يجارب الفلاسفة ، نعم . فقد كان عمله هذا ، عملا عقلياً
محضاً ، وبحثاً فكرياً صرفاً في سبيل الوصول إلى الحقيقة . وهذه هي الفلسفة .

وقديما زيف أرسطو نظرية المثل الأفلاطونية ، ولم يقل أحد : إن عمله هذا ليس فلسفياً ،
على حين كان يهدم فلسفة أفلاطون ، فلماذا الغزالي وحده يقال : إنه ضد الفلسفة والفكر ؟
لقد نقض أرسطو نظرية فلسفية لأفلاطون فقالوا فيلسوف ، ونقض الغزالي نظرية فلسفية -
في الإلهيات فقط - فقالوا : ضد الفلسفة ، وضد الفكر ، وضد العقل .

فلماذا ؟؟

إن « من ينظر إلى الغاية من كتاب التهافت - تلك التي يصورها الغزالي نفسه ، بأنها
انتزاع الثقة من الفلسفة - ورآه لهذا ، بعيداً من نطاق الفلسفة ، فهو مضطر إلى اعتبار
وسيلته - تلك التي تقوم على استعراض مناهج الفلاسفة وأدلتهم ، واستخدام العقل وحده

(١) القاضي أبو بكر بن العربي - آراء أبي بكر بن العربي الكلامية : ١٠٦ .

للكشف فن قصورها وعجزها ، وضعفها وركتها - عملاً داخلًا في صميم الفلسفة . إنه عمل يمكن تصويره بأنه بحث في طاقة العقل ، وهل يمكن أن يكون عملٌ كهذا بعيداً عن مجال الفلسفة ؟^(١) .

فهو إذاً لم يقض على التفلسف والفلسفة ، بل قد ذهب البعض^(٢) « إلى أن الفضل الأكبر لوجود فلسفة القديس توما يعود إلى كتابات الغزالي ، لا إلى تأليف ابن رشد ، فقد هاجم حجة الإسلام الفلسفة ، فرد عليه الشارح ، واستفز مفكري الغرب ، فبادروا إلى الرد على الرد » .

ومن هنا صح لنا أن نقول : ليس صواباً ما ذهب إليه بعض الدارسين والباحثين من أن الغزالي قد قضى نهائياً على الفلسفة في المشرق .

بل قضى على التقليد في الفلسفة ، إذ حوّل المقلدون العلوم العقلية ، الفلسفية إلى علوم نقلية .

أية فلسفةٍ هدمها الغزالي ؟

في كل ما تكلمنا عن نقض الغزالي للفلسفة ، كنا نعني الفلسفة بالمعنى الضيق ، الذي أشرنا إليه آنفاً ، وهو الآراء والأفكار المجلوبة من فلاسفة اليونان ، بل ليست كل هذه الآراء ، وإنما يعني ما كان منها في جانب الإلهيات فقط .

فقد نظر إلى علوم الفلاسفة نظرة الخبير ، وقسمها إلى ستة أقسام ، رياضية ، ومنطقية ، وطبيعية ، وإلهية ، وسياسية ، واعترف صراحة أن القسم الكبير منها لا علاقة له بالدين نفيًا وإثباتًا ، وإنما هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجادتها بعد فهمها ومعرفتها^(٣) .

(١) سليمان دنيا - مقدمة تهافت الفلاسفة : ١ .

(٢) الأب بولس مسعد . عن عبده الشامي . دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية : ٥٥٤ - هامش رقم ١ .

(٣) راجع من كتب الغزالي : التهافت ٦٦٠ ، والمنقذ : ١١٣ ، الإحياء : ٢٢/١ .

وقد وجه الغزالي سهامَ نقده إلى الذين يرفضون الفلسفة جملةً ، من غير فحص وتمحيص ، ورأى أن في هذا جنائيةً على الدين ، من حيث أراد صاحبها الدفاع عنه ، وقد عبر عن ذلك في كتابه تهافت الفلاسفة قائلاً : « وهذا الفن - إشارة إلى العلوم البرهانية - لسنا نخوض في إبطاله ، إذ لا يتعلق به غرض ، ومن ظن أن المناظرة في إبطال هذا من الدين ، فقد جنى على الدين ، وضعف أمره^(١) .

ثم يعلل لهذا الكلام تعليل الأريب الخبير ، فيقول : « فإن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية حسابية ، لا يبقى معها ريبية ، فمن يطلع عليها ويتحقق أدلتها ، حتى يُخبر بسببها عن وقت الكسوفين وقدرهما ، ومدة بقائهما إلى الانجلاء ، إذا قيل له : إن هذا على خلاف الشرع ، لم يسترب فيه ، وإنما يسترب في الشرع ، وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه ، أكثر من ضرره ممن يطمئن فيه بطريقه ، وهو كما قيل عدو عاقل ، خير من صديق جاهل^(٢) .

وهذا يتضح لكل ذي بصر مدى التجاوز في قول القائلين : إن الغزالي حارب الفلسفة ، فهدم الفكر ، وكبت إبداع العقل .

الغزالي والعقل

فيما سبق ظهر لنا أن الغزالي كان دائماً يشدّ يديه جميعاً على العقل ، ولم يتخل عن العقل لحظة فيما عدا تلك الفترة (المرضية) العنيفة ، التي أعضلت كما قال عنها ، واستمرت قرابة الشهرين ، ثم - بتعبيره - « شفاه الله منها ، وعادت الضرورات العقلية مقبولة^(٣) » فلسان حاله فيما كتب ، وفيما ناظر ، وفيما أيد ، وفيما عارض - يقول : لا وسيلة ، ولا ميزان ، ولا معيار ، ولا مقياس ، إلا العقل .

(١) تهافت الفلاسفة : ٦٦ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، وانظر أيضاً المنقذ من الضلال : ١١٥ ، والإحياء ١/٢٢ .

(٣) المنقذ من الضلال : ٩٣ .

ولكنه لم يكتف بلسان الحال ، فقد أفرد العقلَ بحديث خاص ، بين فيه منزلته ، ومجده ، وأعلى شأنه ، وأثنى على أهل العقل الذين يؤمنون له ويعملون بمقتضاه ، وبين منزلته ومكانته من الشرع .

تمجيد للعقل :

في أكثر من كتاب من كتب الغزالي - بعد الخلوة والعزلة - تجمد ثناء وتمجيده للعقل ، ويكفي أن نضعك أمام هذا النص من كتابه (المشكاة)^(١) .

« العقل أولى بأن يسمى نورا من العين الظاهرة لرفعة قدره عن النقائص السبع » .
أما الأولى : فهو أن العين لا تبصر نفسها والعقل يدرك غيره ويدرك نفسه ، ويدرك صفات نفسه .

الثانية : أن العين لا تبصر ما قرب منها قريبا مفرطا ، ولا ما بعد .
والعقل عنده يستوي القريب والبعيد ويعرج في طرفة إلى أعلى السموات رقبيا ، وينزل في لحظة إلى تخوم الأرض هويًا .

الثالثة : أن العين لا تدرك ما وراء الحجاب : والعقل يتصرف في العرش والكرسي ، وما وراء حجب السموات ، وفي الملائ الأعلى والملكوت ، كتصرفه في عالمه الخاص به ومملكته القريبة أعني بها الخاصة به ، بل الحقائق كلها لا تحجب عن العقل .

الرابعة : أن العين تدرك من الأشياء ظاهرها وسطحها الأعلى دون باطنها بل قوالبها وصورها ، دون حقائقها ، والعقل يتغلغل إلى بواطن الأشياء وأسرارها ، ويدرك حقائقها وأرواحها ، ويستنبط أسبابها وعللها وحكمها ، وأنها مم حدثت ، وكيف خلقت ومن كم معنى جمع الشيء وركب ، وعلى أي مرتبة في الوجود نزل وما نسبته إلى سائر مخلوقاته ؟

(١) ص ٨ - ١١ بتصرف .

الخامسة : أن العين تبصر بعض الموجودات ، إذ تقصر عن جميع المعقولات وعن كثير من المحسوسات ، ولا تدرك الأصوات ، ولا الروائح والعلوم .

والموجودات كلها مجال العقل ؛ إذ يدرك هذه الموجودات ، التي عدناها ، وما لم نعهده وهو الأكثر ، فيتصرف في جميعها ويحكم عليها حكما يقينا صادقا ، فالأسرار الباطنة عنده ظاهرة ، والمعاني عنده جلية ، فمن أين للعين الباصرة مساواته في استحقاق اسم النور .

السادسة : أن العين لا تبصر ما لا نهاية له .

والعقل يدرك المعقولات ، والمعقولات لا تتصور أن تكون متناهية .

السابعة : أن العين تدرك الكبير صغيرا فترى الشمس في مقدار حجر ، والكواكب في صورة دنائير على بساط أزرق ، والعقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة .

وأنواع غلط البصر كثيرة والعقل منزه عنها .

فأما العقل إذا تجرد عن غشاوة الوهم والخيال ، لم يتصور أن يغلط بل يرى الأشياء على ما هي عليه .

وإذا لم يكن هذا الذي قاله في (المشكاة) كافيا أو قلت : إن هناك من يشكك في نسبه (المشكاة) إليه ، فيكفي أن أضع أمامك ما قاله في الإحياء ، وهو بالقطع من تأليفه ، وهو بالقطع بعد العزلة والخلوة ، فقد عقد الباب السابع من الكتاب الأول ، من الربيع الأول ، بعنوان (في العقل وشرفه ، وحقيقته ، وأقسامه) .

قال فيه عن شرف العقل :

« اعلم أن هذا مما لا يحتاج إلى تكلف في إظهاره ، ولا سيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل ، والعقل منبع العلم ، ومطلعه وأساسه ، والعلم يجري منه مجرى الشجرة من الشجرة ، والنور من الشمس ، والرؤية من العين ، فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة ؟

أو كيف يُستراب فيه ، والبهيمة مع قصور تمييزها تحتشم العقل ، حتى أن أعظم البهائم بدناً ، وأشدّها ضراوة ، وأقواها سطوة ، إذا رأى صورة الإنسان احتشمه ، وهابه ، لشعوره باستيلائه عليه لما خصّ به من إدراك الحيل^(١) .

ثم أردف ذلك بأن (العلم) المستفاد من العقل « سباه الله روحا ، ووحيا ، وحياة ، فقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾ - الشورى ٥٢ ، وقال سبحانه : ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشي به في الناس ﴾ - الأنعام : ١١٢ . وحيث يذكر القرآن النور والظلمة ، أراد به العلم والجهل ، كقوله سبحانه ، ﴿ يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ - البقرة : ٢٥٧ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أول ما خلق الله العقل ، فقال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال له عز وجل : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم عليّ منك . بك أخذ ، وبك أعطي ، وبك أتيب ، وبك أعاقب »^(٢) .

وتابع الغزالي استشهاده على شرف العقل ومنزلته ، فحشد لذلك طائفة صالحة من الأحاديث النبوية الشريفة ، بلغت خمسة عشر حديثا ، ومع أنها لا تخلو من ضعيف ، أولا تسلّم كلها ، فهذا الصنيع ينطق لا شك بتمجيد الغزالي للعقل ، بل ربما يكون ضعف هذه الأحاديث أكثر دلالة على احتفاء الغزالي بالعقل من صحتها . من حيث تشوّفه لإثبات ذلك بالشرع ، وتطلعه لجعل رفعة العقل وتعظيمه أمرا دينيا .

وكان من آخر ما كتب الغزالي كتابه (المستصفى) في أصول الفقه ، وجاء في مقدمته : « فقد تناطق قاضي العقل ، وهو الحاكم الذي لا يُعزل ، وشاهد الشرع المزكّي المعدّل والعقل أشرف الأشياء ، لأنه مركب الديانة ، وحامل الأمانة ، إذ عرضت على الأرض والجمال والسماء ، فأشفقن من حملها ، وأبين أن يحملنها غاية الإباء »^(٣) .

(١) الإحياء : ٨٣/١

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) المستصفى : ٣/١ .

فهكذا يجعل العقل (ملزما) (متبوعا) (مطاعا) . أليس هو القاضي ، وحكم القضاء نافذ ، أليس هو الحاكم ، وطاعة الحاكم واجبة ، وكان الغزالي دقيقا غاية الدقة حين وصفه بأنه (الحاكم الذي لا يعزل) . ثم هو شاهد الشرع المزكى المعدل ، وهل ترد شهادة مثل هذا الشاهد .

ثم لفت نظرنا أيضا أن الغزالي ، وهو يعرض لأدلة الأحكام في (القطب الثاني) من المستصفي الذي جعله خاصا بها وتفصيلا لها ، قد عرضها هكذا .

القطب الثاني ، في أدلة الأحكام ، وهي أربعة :

١ - الكتاب .

٢ - السنة .

٣ - الإجماع .

٤ - دليل العقل . المقر على النفي الأصلي^(١) .

وهو بهذا ينفرد عن كل من سبقه من الأئمة في عدّه (العقل) رابع الأدلة ، وكذا عن كل من جاء بعده^(٢) - فيما نعلم -

والغزالي بهذا الصنيع لم يخرج على إجماع المسلمين بأنه « لا حاكم إلا الله^(٣) » ، وإنما يعني بعدد العقل أصلا رابعا أنه السبيل إلى إدراك « براءة العدم الأصلية » ولذا يشرح هذا الأصل قائلا : « اعلم أن الأحكام السمعية لا تدرك بالعقل ، لكن دل العقل على براءة الذمة عن الواجبات^(٤) .

ومع ذلك ، فلا يخلو صنيع الغزالي هذا من دلالة ، إذ يبقى له اهتمامه بأمر العقل ، ودوره ، ومجاله .

(١) المستصفي : ١٠٠/١ .

(٢) حاشا ابن قدامة في (روضة الناظر : ١٣٧) . ومن المعروف أن كتاب ابن قدامة هذا يكاد يكون مختصرا للمستصفي .

(٣) انظر في علاج هذه القضية بحثا بعنوان « العقل عند الأصوليين » لصاحب هذا البحث . دار الوفاء للطباعة والنشر - القاهرة . والمنصورة - ١٩٨٨ م .

(٤) المستصفي : ٢١٧/١ .

وحين يتحدث عن الأخوة ، والإخاء ، وما يشترط في الصاحب الذي يؤاخي ، يجعل العقل أول هذه الشروط ، فيقول : « وعلى الجملة فينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال ، أن يكون عاقلا ، حسن الخلق ، غير فاسق ، ولا مبتدع ، ولا حريص على الدنيا »^(١).

هكذا يجعل العقل أول الشروط ، ثم يفصل هذا الإجمال ، فيقول : « أما العقل ، فهو رأس المال ، وهو الأصل ، فلا خير في صحبة الأحمق ، كيف والأحمق يضرك »^(٢).

ومما يدل على أن تمجيد العقل إحدى الأفكار الراسخة ، والرئيسة في مذهب الغزالي ، أنه يجدد لنا مراتب التصديق الجازم أو الإيمان القاطع ، في كتابه المعروف ، « إجماع العوام عن علم الكلام » فيجعل التصديق ، أو الإيمان عن طريق البراهين المنطقية أسمى مراتب الإيمان . فالكلمة الأولى هي إذا للتصديق الذي ينتهي إليه المرء عن طريق « البرهان المستوفي شروطه ، والمحزر أصوله ، ومقدماته درجة درجة ، وكلمة كلمة ، حتى لا يبقى مجالاً لاحتمال الشك ، وذلك هو الغاية القصوى . وربما يتفق ذلك في كل عصر ، لواحد أو اثنين ، ممن ينتهي إلى تلك الرتبة وقد يخلو العصر عنه »^(٣) .

وبعد هذا تكون قد وضحت حجة من جعل الغزالي من الفلاسفة العقلين . يقول الدكتور سليمان دنيا : « لو أردنا أن نلخص خلاصة رأيه في العلوم ومصادرها ، في كلمة موجزة ، لقلنا : إنه من الطائفة المدعوة الآن بالعقلين ؛ فإنه يقول : العلم هو اليقين العقلي المأخوذ إما من الحسيات - بعد فحص العقل لها ، وتفتيشه عن مأخذها ، هل هي مستوفية لشروط الإحساس الصحيح أولا ، وإما من البدييات - بعد فحص العقل لها ، هل سلمت من سلطة الأوهام أولا ، وإما من المتواترات - بعد تفتيش العقل واعتماده ، وإما من الوجدانيات - بعد الفحص العقلي ، وإما من التجريبيات - بعد الفحص العقلي ، وإما من القضايا الفطرية القياس - بعد الفحص العقلي .

(١) الإحياء : ١٧١/٢ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) د . محمود قاسم . دراسات في الفلسفة الإسلامية : ١٥٧ .

فكل ذلك لاثقة به إلا بعد تفتيش العقل وفحصه ، ثم إعطائه الحكم بأنه صحيح أو غير صحيح^(١).

هكذا العقل حاكم على كل مصادر العلم والمعرفة .

وقد يبدو الغزالي مفرطاً في ثقته بالعقل ، حيث يرى « أن العقل إذا تحرر من غشاوة الوهم والخيال ، لم يتصور أنه يخلط ، بل يرى الأشياء على ما هي عليه »^(٢).

ويعلق على هذا الدكتور محمود قاسم قائلاً : « فهل يحق لنا أن نقرر أن هذا الفيلسوف من أكثر الناس حماسة للمذهب العقلي ، في حين أننا نرى أن أكثر الناس تطرفاً في هذا المذهب ، يفسحون مجالاً لاحتفال الخطأ ، ويعترفون بنسبية العلم وتطوره ، ويرون في هذه النسبية دليلاً على حيوية العلم واتجاهه دائماً نحو غاية يقترب منها باطراد ، دون أن يصل إليها أبداً »^(٣).

ولكنه يعود مستدركا ، لينفي عن الغزالي تهمة الإفراط في الثقة بالعقل ، ذلك أنه نفى عن العقل إمكان الغلط بشرط هو السلامة عن الآفات ، والحجب والأوهام ، والغزالي يعترف بأن هذه الشروط لا يمكن أن تتحقق كاملة في أثناء هذه الحياة الدنيا ، إذ العقل محجوب - في نظره - لا عند العلماء فحسب ، بل لدى أهل التصوف أنفسهم^(٤).

فهو إذاً يثق بالعقل ، ثقة (العقلانيين) من غير إفراط ولا تفريط .

تمجيد لمن يتبعون العقل :

بعد تمجيد الغزالي للعقل وبيان شرفه ومنزلته ، وسلطانه ، وفضله ، نجده يثني على من يتبعون العقل ، فيقول في أعظم كتاب ألفه ليناصر به مذهب الأشاعرة ، وهو (الاقتصاد في الاعتقاد) .

(١) سليمان دنيا : مقدمة معيار العلم : ٢٦ .

(٢) من محمود قاسم - دراسات في الفلسفة الإسلامية : ١٤٩ .

(٣) المصدر السابق نسه

(٤) المصدر السابق نفسه : ١٥٠ بتصرف .

« وأما اتباع العقل الصرف ، فلا يقوى عليه إلا أولياء الله تعالى ، الذين أراهم الحق حقا ، وقواهم على اتباعه »^(١).

هكذا أتباع العقل هم أولياء الله حقا .

الغزالي والتقليد :

رأينا أن الغزالي كان في حملته على الفلسفة والفلاسفة ، لا يهاجم الفكر الحر ، ولا المنهج العلمي ، وإنما هاجم تقليد آراء فلاسفة اليونان ، والخضوع لها ، وعدم عرضها على معيار العقل ، وميزان الفكر ، وقد كان دائما ضد التقليد ، داعيا إلى نبذهِ وإطراحه ، مناديا بضرورة البحث عن الحق ومعرفته بالحق ، لا بالرجال ، وقد كانت هذه القاعدة هي دستورهِ الذي لم يجد عنه لحظة في خاصة نفسه ، ويدعو غيره إليه ؛ فقد وهبه الله نفسا طُلعة تواقه إلى درك الحقائق ، متعطشة إلى كُنْه الأمور ، فانحلت عنه رابطة التقليد ، وانكسرت عليه العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا^(٢).

وهو يدعو إلى إنزال المذاهب كلها ، والآراء الموروثة كلها ، ووضعها في موضع النظر والبحث ، فليس مع واحدٍ منها دليل يُثبت صدقه ، فيقول مجيبا من سأله عن أي المذاهب هو الحق : « ... وليس مع واحدٍ منهم معجزة يترجح بها جانبه .

فجانِب الالتفات إلى المذاهب ، واطلب الحقَّ بطريق النظر - لتكون صاحبَ مذهب ، ولا تكن في صورة أعمى تقلد قائدا يرشدك إلى طريق ، وحولك ألفٌ مثل قائدك ينادون عليك بأنه أهلكك ، وأضلك عن سواء السبيل .

(١) عن سليمان دنيا - الحقيقة في نظر الغزالي : ٥٤ .

(٢) المنقذ من الضلال : ٨٩ .

الغزالي وحرية الفكر :

بكل ما تقدم من دعوة إلى العقل وتمجيده ، وبيان شرفه وعلو منزلته ، ومنزلة من يتبعونه ، إلى الدعوة إلى نبذ التقليد ، والإزراء على المقلدة والدعوة إلى العلوم العقلية ، والهجوم على من يرفض البرهانيات ، ويحسد العقليات ، بكل ذلك ، وبعض ذلك يكون الغزالي من رجال الفكر الحر ، والرأي الحر .

ولكن يبدو أن حرية الرأي ليس لها مفهوم ، عند بعضهم ، إلا في الاطلاع على آراء الخارجين والمارقين ، والأعداء والمناوئين ، والملحدين والكافرين .

وبهذا المعنى أيضا يكون الغزالي من أصحاب حرية الرأي ، هذا إن أرادوا الاطلاع عليها ودراستها ، وتقويمها ، فكل ذلك قد كان من الغزالي .

أما إن أرادوا اتباعها ، وتقليدها ، والتعبد لها ، والانبهار بها ، فهذا ما رفضه الغزالي ، وعابه ، وحذر منه ، وزيفه ، وبين خطله وخطأه .

بل إن الغزالي لم يرفض من هذه الآراء ، والأفكار ، والنظريات ، ما ثبت عنده صدقه ، وصحته بالدليل والبرهان ، مما عرض - رضي الله عنه - للهجوم والالتهام بأنه يأخذ من علوم المضلين ، وفنون الجاحدين ، فكان نصيبه العداوة من الفريقين .

ولكنه رضي الله عنه لم يتخل عن دستوره : (اعرف الحق بالحق) ، فأثبت في كتبه ما رآه حقا ، من قضايا ، ومن مصطلحات ، وردت في كتب الفلاسفة ، ولما عابوا ذلك عليه ، كان رده :

« وهب أن هذه لم توجد إلا في كتبهم ، فإذا كان ذلك الكلام معقولا في نفسه ، مؤيدا بالبرهان ، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة فلم ينبغي أن يهجر ؟ أو ينكر ؟^(١) .

(١) المنقذ من الضلال : ١٢٦ .

وستعلم في عاقبة أمرك ظلمَ قائدك ، فلا خلاص إلا في الاستقلال .

خذ ما تراه ، ودع شيئا سمعت به في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل ولم لم يكن في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث ، لتنتدب للطلب ، فناهيك به نفعاً ؛ إذ الشكوك هي الموصلة إلى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر ، بقي في العمى والضلال^(١) .

فأي نبيذٍ للتقليد وإزراء به أكثر من هذا ؟ .

ومما أثر عنه أيضاً في هذا الباب قوله : « واعلم يا أخي أنك متى كنت ذاهباً إلى تعرف الحق بالرجال ، من غير أن تتكل على بصيرتك ، فقد ضل سعيك ، فإن العالم من الرجال ، إنما هو كالشمس أو كالسراج ، يعطي الضوء ، ثم انظر ببصيرتك ، فإن كنت أعمى ، فما يغني عنك السراج والشمس ، فمن عول على التقليد هلك هلاكاً مطلقاً »^(٢) .

هكذا التقليد هلاك مطلق .

وتجده يزدري المقلدة ، ويراهم كالعوام ، بل أحط منهم شأنًا ، فيقول ، بعد أن وصف سلوك المقلدة ، ورفضهم للحق لمجرد معرفتهم أنه ليس من قول المذهب الذي هم عليه : « ... ولست أقول هذا طبع العوام ، بل طبع أكثر المتوسمين باسم العلم ، فإنهم لم يفارقوا العوام في أصل الاعتقاد ، بل أضافوا إلى تقليد المذهب ، تقليد الدليل ، فهم في نظرهم (أي بحثهم) لا يطلبون الحق ، بل يطلبون طريق الحيلة في نصرته ما اعتقدوه حقا بالسماح والتقليد ، فإن صادفوا في نظرهم ما يؤكد اعتقادهم ، قالوا : لقد ظفرنا بالدليل ، وإن ظهر لهم ، ما يضعف مذهبهم قالوا : قد عرضت لنا شبهة »^(٣) .

(١) ميزان العمل : ٤٠٩ .

(٢) معراج السالكين (عن سليمان دنيا - الحقيقة في نظر الغزالي : ٥٤) .

(٣) الاقتصاد في الاعتقاد (عن سليمان دنيا - الحقيقة في نظر الغزالي : ٥٥) .

ثم يتابع كلامه مبينا خطأ هذا الذي يعترض عليه ، وخطر رأيه ، فيقول :

« فلو فتحنا هذا الباب ، وتطرقتنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل ، لزمنا أن نهجر كثيرا من الحق ، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من القرآن وأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحكايات السلف ، وكلمات الحكماء والصوفية : لأن صاحب كتاب (إخوان الصفا) ، أوردتها في كتابه ، مستشهدا بها ومستدرجا قلوب الحمقى بواسطتها إلى باطله ، ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا ، بإيادهم إياه في كتبهم»^(١).

فهو باحث عن الحق ، حيث هو ، وعن العلم حيث كان ، ولو كان مع الكافرين ، وفي ثانيا أبحاثهم ، وتضاعيف كتبهم ، لا يرده عنه أنه سبق إليه خاطر المبطلين . فالحكمة ضالة المؤمن ، وهو أحق بها أنى وجدها .

ثم يتابع كلامه مؤكدا إياه بمثال بالغ ، وهو أن العسل يظل عسلا ، ولو وضع في محجمة الحجام ، فالصواب صواب ، والحق حق ، ولو نطق به الكافرون والمبطلون .

ويضرب مثلا آخر أبلغ من ذلك ، حينما يقول النصراني : لا إله إلا الله عيسى رسول الله . فهذا قول حق ، فهل يرفضه المسلم لأنه جاء على لسان النصراني ؟؟ إن النصراني ما كفر بهذا . إنما كفر بإنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لا بالاعتراف بنبوة عيسى^(٢).

ويعلق أستاذنا الدكتور محمود قاسم على كلام الغزالي هذا قائلا : « وفي رأينا أن وجهة نظر الغزالي تتفق مع المنهج العلمي السليم ، وهي تتضمن ضرورة الاطلاع على آراء الآخرين ، ومحاولة الانتفاع بها ، إذا ثبت أنها مطابقة للعقل والشرع ، فهو لا يريد إذا الحجر على التفكير ، ولا يهدف إلى فرض قيود تقف في سبيله ، أو تدعوه إلى التقليد والجمود»^(٣).

(١) المنقذ من الضلال : ١٢٧ .

(٢) المنقذ من الضلال ١٢٥ - ١٢٧ بتصرف .

(٣) دراسات في الفلسفة الإسلامية : ١٤٩ .

الغزالي ودراسة العلوم :

إن من يتتبع كلام الغزالي ، بعقلٍ واعٍ ، ومنهجٍ علمي سليم ، لا يهوى وتحاملٍ ، ولا يضرب كُتبه بعضها ببعض ، يظهر له ، إيمان الغزالي بالعقل وبالفكر ، وبالرأى الحر ، وبالمنهج العلمي الصارم ، ويراها داعياً لدراسة العلوم ، معظماً لشأنها .

فهو يدعو إلى العلم ، بكل ألوانه وفروعه ، وأقسامه ، دعوةً عامة ، ثم رأينا له لمحاتٍ عن بعض العلوم ، سجلنا بعضاً منها ، ولم نُحصها إحصاءً .

فهو يقول عن علم تشريح الأعضاء : « ولا يطالع التشريح ، وعجائب منافع الأعضاء ، مُطالع إلا ويحصل له هذا العلمُ الضروريُّ بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان ، لا سيما لبنية الإنسان »^(١) .

ثم يدعو إلى الطب والحساب ، والزراعة ، والهندسة ، وما لا قوام للحياة بدونها من العلوم والحرف ، ويجعلها من فروض الكفايات .

ومما قاله في هذا المعنى ، في (ميزان العمل) تحت عنوان : (بيان شرف : العقل ، والعلم ، والتعليم) .

« ٠٠٠٠ والصناعات ثلاثة أقسام :

- ١ - إما أصول ، لا قوام للعالم دونها . وهي أربعة :
الزراعة - والحياكة ، والبنية ، والسياسة .
- ٢ - وإما مهياة لكل واحدة منها ، وخادمة لها :
كالحدادة للزراعة - والحلاجة ، والغزل ، للحياكة .

(١) المنقذ من الضلال : ١١٠ .

٣ - وإما متممة لكل واحدة من ذلك ، ومزينة لها :
كالطحانة والخبز : للزراعة .
والقصارة^(١) والخياطة : للحياكة^(٢) .

* * *

ولعل أظهر ما يدل على رأي الغزالي في دراسة العلوم ، دعوته من يتصدى لتفسير القرآن إلى التزود بالعلوم (العقلية) المختلفة قبل العلوم الشرعية ، حتى يؤدي أمانة التفسير كاملة .

فإذا قال القرآن الكريم ﴿ يأياها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، الذي خلقك فسواك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ (الانفطار : ٦ - ٨) فلا يفسر هذه الآية التفسير الكامل المراد منها ، إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهرا وباطنا ... الخ

وإذا قال سبحانه : ﴿ والشمس والقمر بحسبان ﴾ (الرحمن : ٥٠) وقال : ﴿ وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ (يونس : ٥) فلا يعرف حقيقة الشمس ، وسيرها ، وأبراجها ، ومنازلها ، والقمر ودورانه ، وخسوفها ، ولوج الليل في النهار ، وكيفية تكور أحدهما على الآخر ، إلا من عرف هيئات تركيب السماوات ، والأرض ، وهو علم تتفرع منه علوم

ثم يقول الغزالي بعد أمثلة كثيرة شاملة : « ولو ذهبت أفصل ما تدل عليه آيات القرآن الكريم من تفاصيل علوم ، لطال الأمر ، وتشعب ، فتفكر في القرآن والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علوم الأولين والآخرين »^(٣) .

(١) تبيض المنسوجات .

(٢) ميزان العمل : ٣٢٨ وما بعدها .

(٣) عن طه عبد الباقي سرور : الغزالي : ١١٤ - ١١٦ .

ومن تمجيدهِ للعلوم العقلية ما قاله في (ميزان العمل) : « وليس يخفى أن العلوم العقلية تدرك بالعقل الذي هو أشرف القوى ، وبه يتوصل إلى جنة المأوى »^(١).

الغزالي يتوقع المكتشفات العلمية :

فهو يقول^(٢) : « ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يُتارى فيها ، أن في الإمكان والقوة أصنافاً من العلوم العجيبة لم تخرج بعدُ من الوجود ، وإن كان في قوة الأدمي الوصول إليها ، وعلوم كانت قد خرجت إلى الوجود واندرست الآن ، فلن يوجد في هذه العصور على وجه الأرض من يعرفها ، وعلوم أخرى ليس في قوة البشر أصلاً إدراكها والإحاطة بها ، ويحظى بها بعض الملائكة المقربين » .

والغزالي بهذا قد تنبأ بالمعارف الإنسانية التي نشاهدها في عصرنا ولم يشاهدها هو في عصره ، والتي ستشاهدها العصور القادمة ، ولم نشاهدها نحن ، ونظريته في العلوم المدرسة يشهد بصحتها العلم الحديث ، والاكتشافات التاريخية ، فقد وُجد لدى قدماء المصريين في مقابرهم من أسرار الكيمياء وتحنيط الأجساد والحبوب ، وأسرار البناء والفلك ما لم تهتد إليه المعارف الحاضرة » .

وينقل الأستاذ طه عبد الباقي سرور ، عن أكثر من واحد من المؤرخين ، أنهم « اطلعوا على كتاب للغزالي ، محفوظ في برلين ، بعنوان (رموز القرآن) ، وأنهم قالوا : « إن الغزالي قد أشار في هذا الكتاب إلى الكهرباء ، والديناميت ، والهواء الخفيف » .

ثم يعقب : وليس في استطاعتنا أن نؤكد صحة هذه الأشياء ، فدليلها مفقود ، وآيتها في بطون صفحات لا تزال محجوبة عن الشمس »^(٣).

(١) ميزان العمل : ٣٣٠ .

(٢) عن طه عبد الباقي سرور : ١١٨ .

(٣) الغزالي : ١١٩ .

الرياضيات في نظر الغزالي :

كانت الرياضيات فرعاً من فروع الفلسفة ، وعلماً من علومها ، على عهد الغزالي ، فلما عُلِمَ أن الغزالي هاجم الفلسفة ، وقضى عليها ، وكشف عوارها ، وأبان تهافتها ظن من يأخذ العلم عن بُعد^(١) أن الغزالي عدو للفكر ، وحرية الفكر ، وبالتالي عدو للعلوم التي تقوم على الفكر والنظر المستقيم ، وراح الباحثون عن (تكنولوجيا) عصرنا يُحمَلون الغزالي مسئولية تخلفهم وعجزهم .

لقد قسم الغزالي علوم الفلسفة إلى ستة أقسام ، وعدّ أولها الرياضيات فإذا قال عن الرياضيات ؟

« أما الرياضة : فتتعلق بعلم الحساب ، والهندسة ، وعلم هيئة العالم ، وليس يتعلق شيء منها بالأمر الدينية نفيًا وإثباتًا ، بل هي أمور برهانية ، لا سبيل إلى مجادتها بعد فهمها ، ومعرفتها^(٢) .

هكذا . الرياضة « أمور برهانية ، لا سبيل إلى مجادتها » ينفي أشد النفي ، أن يجحد أحد براهين الرياضيات ، وأن يردّ قوانينها ، ويرفض نتائجها . هل هناك تقرير وتأكيد لقيمة الرياضيات أكبر من هذا ؟ وهل هناك وصف لحقيقة الرياضيات أصدق من هذا ؟ .

ولكن الغزالي ، المربي ، المعلم ، المصلح الاجتماعي ، الفيلسوف ، لا تغره ظواهر الأمور ، فإلتفت إلى خطر آخر ينشأ عن دراسة الرياضيات ليس من الرياضيات في ذاتها ، ولكنه من الآثار الجانبية التي (قد) تنشأ عن دراسة الرياضيات ، وهذا ما يمكن أن يسمى (بالخبرة المصاحبة) في اصطلاح رجال التربية في عصرنا .

(١) أخذنا هذا التعبير عن إمام الحرمين شيخ الغزالي ، وهو يعيب به المتعجلين في أحكامهم غير المثبتين في آرائهم .
(٢) المنقذ من الضلال : ١٣ . بتحقيق الشيخ عبد الحلیم محمود . دار الكتب الحديثة بالقاهرة (بدون تاريخ) .

نعم تنبه الغزالي إلى (أعراض جانبية) لدراسة الرياضيات ، ونبه لها ، وحذر منها ،
وذلك قوله : « وقد تولدت منها آفتان :

الأولى : أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ، ومن ظهور براهينها فيحسّن بسبب ذلك
اعتقاده في الفلاسفة ، فيحسب أن جميع علومهم في الوضوح ، وفي وثاقة البرهان ، كهذا
العلم ، ثم يكون قد سمع من كفرهم ، وتعطيلهم ، وتهاونهم بالشرع ، ما تداولته
الأسنة ، فيكفر بالتقليد المحض ، ويقول : لو كان الدين حقا ، لما اختفى على هؤلاء مع
تدقيقهم في هذا العلم ، فإذا عرف بالتسامع ، كفرهم وجحدهم ، فيستدل على أن الحق :
هو الجحد والإنكار للدين ، وكم رأيت من يضل عن الحق بهذا القدر ولا مستند له سواه .

وإذا قيل له : الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقا في كل صناعة ، فلا يلزم
أن يكون الحاذق في الفقه ، والكلام ، حاذقا في الطب ، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات
جاهلا بالنحو ، بل لكل صناعة أهل ، بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق . وإن كان الحمق
والجهل قد يلزمهم في غيرها ، فكلام الأوائل في الرياضيات برهاني ، وفي الإلهيات تخميني ،
لا يعرف ذلك إلا من جربه ، وخاض فيه ، فهذا إذا قرر على هذا الذي انخدع بالتقليد لم
يقع منه موقع القبول ، بل تحمله غلبة الهوى وشقوة البطالة ، وحب التكايس على أن يُصرَّ
على تحسين الظن بهم في العلوم كلها»^(١).

هكذا يدرك المري الخبير ، هذه الآفة الخفية ، ومدى خطرها ، وهي آفة نفسية كما
ترى ، إذ قد يُخدع من يتعلم الرياضيات ويراهها لا تخطيء ، فيظن أن باقي علومهم
لا تخطيء ، فيصدقهم في الإلهيات قياسيا لها على الرياضيات ، فما دام هؤلاء يقولون حقا
لا يتخلف في جانب الرياضيات ، فلماذا يتخلف الحق ، ويجوز عليهم الخطأ في جانب
الإلهيات ، وهو مزلق كما ترى عظيم ، وإذا أريد التنبيه إليه بأن من حذق صناعة ، ومهر
فيها ، ليس بالضرورة أن يكون حاذقا في كل صناعة ، فهذا التنبيه على وضوحه ، لا ينفع
« الذي انخدع بالتقليد ، ولا يقع منه موقع القبول ، بل تحمله غلبة الهوى وشقوة البطالة ،
وحب التكايس على أن يُصرَّ على تحسين الظن بهم في العلوم كلها » .

(١) المتخذ من الضلال (بتحقيق الشيخ عبد الحليم محمود) : ١١٤ .

وواضح هنا أنه يرى أن هذه الآفة ليست بلازمة للرياضيات ، وليس كل دارس للرياضيات معرضا لها ، وإنما الضعاف المقلدة فقط ، وليس كل المقلدة ، بل من يغلبه الهوى ، ومن يجب التعالم ، أي الأحق المتكاسيس .

ولا يتردد الغزالي في الحكم بمنع تدريس الرياضيات من أجل هذه الآفة ، فيقول :

« فهذه آفة عظيمة ، لأجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم ، فإنها وإن لم تتعلق بأمر الدين ، ولكن لما كانت من مبادئ علومهم ، يسري إليه شرهم ، وشؤمهم ، فقل من يخوض فيها ، إلا وينخلع من الدين ، وينحل عن رأسه لجأ التقوى»^(١).

وأعلم أن هناك من سيصيح : وجدتها ، ها قد قالها الغزالي بنفسه : « لأجل هذه الآفة يجب زجر كل من يخوض في علوم الرياضيات » .

وليس حجة الإسلام ممن ترعه هذه التهاويل ، أو يلتفت إلى هذه المغالطات ، فهو قد عنى صنفا معينا من الناس ، عندهم الاستعداد للاستهواء ، فيهم ضعف التقليد ، ويغلبهم الهوى ، ويعميهم حب التكاسيس .

ولعمري إن هذا مائل للعيان أمامنا ، فيمن يتعلمون علم الغرب في أي فن من الفنون ، ولتكن الرياضيات مثلا ، فيعود بعض منهم إلينا وقد انسلخوا من جلودهم وخرجوا من إهابهم ، انهارا بعلوم القوم وفنونهم ، فيأخذون عنهم ما عندهم ، من هرطقة وتجديف ، ومن عادات وتقاليد ، بل وذنوب وآثام ، يعرفون بالقطع حرمتها في ديننا ، ولكنهم يستحلونها ، ولسان حالهم يقول : لو كان هذا خطأ أو ضرا ، ما ارتكبه هؤلاء المتقدمون الذين سادوا العالم ، ويسطوا عليه نفوذهم وحضارتهم .

يقولون هذا بلسان الحال أحيانا ، ولسان المقال حيناً ، فكم من بعضهم حينما يخاطب في تحليل حلال أو تحريم حرام . يقول : كفى تخلفا . العالم صعد إلى القمر ، وأنتم قاعدون تقولون : حلال وحرام !!!

(١) المصدر السابق نفسه .

ومعلوم أن منهم من يعاقر الخمر (وهي من المعلوم حرمتها بالضرورة) قائلاً : لو كانت حراما ، ولو كانت ضارة ، لاهتدى إلى ذلك هؤلاء ، أصحاب العقول الكبيرة الذين اخترعوا كذا وكذا .

هذا واقع مشاهد . وكان الغزالي يتكلم عنه .

ولكن ليس معنى ذلك أن نزجر من يتعلم الرياضيات بإطلاق ، لا نقول نحن ذلك ، ولم يقله الغزالي ، وإنما مراده رضي الله عنه أن نختر لهذه العلوم أصحاب القدرة العقلية ، والسلامة النفسية ، ومن المعلوم أن الدول الواعية التي تحافظ على ذاتيتها ، وشخصيتها ، وفلسفتها ، تحدد مستوى معيناً من النضج العقلي ، والنمو النفسي ، والعمر الزمني لأبنائها ، عند الابتعاث إلى دول أجنبية للدراسة .

إذا علمنا ذلك ، فلا محل للاعتراض الذي اعترض به أستاذنا الجليل الدكتور سليمان دنيا رحمه الله ، وذلك قوله : « أما الأمر الذي لا نستطيع أن نوافق الغزالي عليه ، فهو قوله : (فهذه آفة عظيمة يجب لأجلها زجر كل من يخوض في تلك العلوم) . فهذه دعوة إلى الجهل ، إذ لا يسوغ لنا أن نمنع من علوم الرياضة كل الناس ، إذ ليس كل الناس عرضة للوقوع في أخطار هذه الآفة »^(١) .

ومعاذ الله أن يكون حجة الإسلام « داعية إلى الجهل » وهو الذي أفنى عمره في سبيل الحقيقة ، وفي كتاب « ميزان العمل » نفسه الذي كتب الدكتور سليمان دنيا في مقدمته هذا الكلام ، نجد الغزالي يتحدث عن شرف العقل ، وشرف العلم والتعليم ، وعن الصناعات . (انظر الصفحات ٣٢٨ وما بعدها) .

وكلام أستاذنا الدكتور سليمان دنيا في أنه ليس كل الناس معرضين للوقوع في أخطار هذه الآفة ، هو بعينه كلام الغزالي ، ومع أن الغزالي استخدم لفظ (كل) فقال : « يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم » فواضح من سياق كلامه وسباقه أنه لا يقصد (كل) بمعناها

(١) من مقدمته لكتاب (ميزان العمل للغزالي : ٦٨) - دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤ م .

المطلق ، وإنما (كل) من يكون عرضة للوقوع في أخطار هذه الآفة ، ومن البدائه أن كلام الإنسان يُفهم ويفسّر في ضوء سياقه وسباقه ، ومع كل كلامه في ذات الموضوع .

وكذلك أيضا لا محل للاعتذار الذي قدمه شيخنا الإمام الدكتور عبد الحلیم محمود ، في تعليقه على « المنقذ من الضلال » ، إذ قال : « ولعل وضع الرياضيات في أيام الإمام الغزالي كان على غير وضعها الآن ، وما من شك في أن الإمام الغزالي - وهو واسع الأفق مستنير - لو عاش بيننا الآن ، لما قال ذلك » أ.هـ^(١) .

بل يجب علينا نحن أن نقوله الآن ، بأوضح مما قاله الغزالي ، ولو لم يقله الغزالي ، فأوضاعنا الآن في حاجة إلى ألف غزالي .

وقد سررنا بتوفيق الله حين وقعنا على موافقة كلامنا هذا لما قاله العلامة الداعية الشيخ أبو الحسن الندوى ، مد الله في عمره ، إذ علق على كلام الغزالي هذا ، قائلا : « وكأنه (أي الغزالي) يصور - وهو يذكر تأثير العلوم الرياضية ، ورد فعلها في كثير من ضعاف العقول ، والمتكاسين في عصره - عقلية النشء الجديد ، وكثير من المتعلمين في القرن العشرين ، الذين خضعوا لبراعة الأوربيين في العلوم الطبيعية والأختراعات ، ورأوا ما هم عليه من إلحاد وزندقة وتفسخ خلقي ، فظنوا أنه الطريق الأقوم ، وقلدوهم فيه »^(٢) .

ولا يكتفي الغزالي بهذه الآفة وحدها التي تعرض من دراسة الرياضيات وإنما يرى أن وراءها آفة أخرى ، ولكنها ليست من دراسة الرياضيات ، وإنما تولدت عن صدق النظريات الرياضية ، وسلامة براهينها .

« الآفة الثانية نشأت من صديق للإسلام جاهل ، ظن أن الدين ينبغي أن يُنصر بإنكار كل علم منسوب إليهم : فأنكر جميع علومهم ، وادعى جهلهم فيها ، حتى أنكر قوتهم في الكسوف ، والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع ، فلما قرع ذلك سمع من

(١) المنقذ من الضلال : ١١٤ هامش ١ . (مرجع سابق) .

(٢) أبو الحسن الندوى : رجال الفكر والدعوة في الاسلام : ١٩٠ - دار القلم بالكويت - ١٣٩٤هـ -

١٩٧٤م .

عرف ذلك بالبرهان القاطع ، لم يشك في برهانه ، لكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل ، وإنكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حبا ، وللإسلام بغضا .

ولقد عظمت على الدين جنابةً من ظن أن الإسلام يُنصر بإنكار هذه العلوم ، وليس في الشرع تعرضٌ لهذه العلوم بالنفي ، والإثبات ، ولا في هذه العلوم تعرض للأُمور الدينية . وقوله عليه السلام :

(إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى : لا ينخسفان لموت أحد ، ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك ، فافزعوا إلى ذكر الله تعالى ، وإلى الصلاة)^(١) .

ليس في هذا إنكار علم الحساب ، المعروف بمسير الشمس ، والقمر ، واجتماعهما ، أو مقابلتها على وجه مخصوص .

أما قوله ، عليه السلام : « لكن الله إذا تجلى لشيء خضع له » فليس توجد هذه الزيادة في الصحاح أصلاً^(٢) .

وواضح هنا أن الخطر أيضاً ليس من جانب الرياضيات في ذاتها ، بل من الجهلة الذين ينصرون الإسلام بجهلهم ، فيعيبونه وهم يظنون أنهم يدفعون عنه ، كالدَّبة التي قتلت صاحبها في القصة الرمزية المشهورة .

ومما يؤسف له أن هذه الآفة موجودة في عالمنا الآن ، في صورة رفضٍ للحقائق العلمية ، بل والإنجازات الحضارية ، فقد سمعنا عمن ينكر كروية الأرض باسم الإسلام ، وينكر وصول الإنسان إلى القمر باسم الدين . وينكر عمل المسلمين بالصناعات والبحث العلمي ، زاعماً أن الله سخر لنا الكفار في بلاد الغرب ، ليخترعوا لنا وسائل الصناعة وآلات الزراعة ومنتجات الحضارة: من دواء للأمراض ، وغذاء للأجسام ، وسلاحٍ لندافع به عن ديار الإسلام ؛ كي نتفرغ نحن للعبادة . كذا يقال . فأين الغزالي هؤلاء .

(١) صحيح رواه مسلم من حديث جابر : ٣١/٣ - ٣٢ ، وأبو عوانة : ٣٧١/٢ ، ٣٧٢ ، وأبو داود : ١١٧٨ ، والبيهقي : ٣٢٥/٣ - ٣٢٦ ، وأحمد : ٣١٧/٣ - ٣١٨ (إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل . محمد ناصر الألباني : ١٢٦/٣ - المكتب الإسلامي - بيروت - ١٣٩٩هـ - وراجع هناك لترى صحة كلام الغزالي في أن هذه الزيادة ، لا وجود لها في الصحاح .

(٢) المنقذ من الضلال : ١١٥ .

المصادر والمراجع

أولاً : مؤلفات الإمام الغزالي :

- ١ - إحياء علوم الدين .
المكتبة التجارية الكبرى - مصر (بدون تاريخ) .
- ٢ - الاقتصاد في الاعتقاد .
مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر (١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م) .
- ٣ - تهافت الفلاسفة (بتحقيق الدكتور / سليمان دنيا - رحمه الله) .
دار المعارف بمصر - بدون تاريخ .
- ٤ - فضائح الباطنية (بتحقيق الدكتور / عبد الرحمن بدوي) .
المتحدة للتوزيع - بيروت (١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م) .
- ٥ - القسطاس المستقيم (بتحقيق الأب فيكتور شلحت اليسوعي) .
المطبعة الكاثوليكية - بيروت - ١٩٥٩ م .
- ٦ - المستصفى . المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٢٢ هـ .
- ٧ - المشكاة (ضمن مجموعة رسائل للغزالي بعنوان : القصور العوالي) .
مكتبة الجندي - بالحسين - بمصر (١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م) .
- ٨ - معيار العلم . دار الأندلس - بيروت ١٩٦٤ م .
- ٩ - المنقذ من الضلال (بتحقيق الدكتور / عبد الحليم محمود) .
دار الكتب الحديثة - بعابدين بالقاهرة - (بدون تاريخ) .
- ١٠ - ميزان العمل (بتحقيق الدكتور / سليمان دنيا - رحمه الله) .
دار المعارف - بمصر ١٩٦٤ م .

ثانياً : مصادر ومراجع :

- * ابن رشد : القاضي أبو الوليد محمد بن رشد (الحفيد) .
- ١١ - تهافت التهافت . بتحقيق وتقديم الدكتور / سليمان دنيا .
دار المعارف - القاهرة - ١٩٨٠ م .
- * القاضي أبو بكر بن العربي (بتحقيق د . عمار طالبي) .

- ١٢ - آراء أبي بكر بن العربي الكلامية (العواصم من القواصم) .
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - (١٩٨١ م) .
- * أبو الحسن الندري - العلامة الداعية - فخر القارة الهندية .
- ١٣ - رجال الفكر والدعوة في الإسلام .
دار القلم - الكويت (١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م) .
- * د . أبو الوفا الغنيمي التفتازاني .
- ١٤ - مدخل إلى التصوف الإسلامي .
دار الثقافة - بالفجالة بالقاهرة ١٩٧٩ م .
- * د . أنطونيوس كرم .
- ١٥ - العرب أمام تحديات التكنولوجيا .
سلسلة شهرية تصدر عن المجلس الوطني للثقافة بالكويت رقم ٥٩ (محرم - صفر
١٤٠٣ - نوفمبر ١٩٨٢) .
- * الإسنوي : جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن .
- ١٦ - طبقات الشافعية (بتحقيق الدكتور / عبد الله الجبوري) .
ديوان الأوقاف بالعراق - بغداد - ١٣٩٩ هـ .
- * الحارث بن أسد المحاسبي أبو عبد الله .
- ١٧ - رسالة المستر شدين (بتحقيق الشيخ الجليل / عبدالفتاح أبو غدة) .
مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب - (١٩٨٤ هـ - ١٩٦٤ م) .
- * د . حسام الألوسي .
- ١٨ - دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي .
المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت (١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م) .
- * د . حسن أحمد محمود ، وآخر .
- ١٩ - العالم الإسلامي في العصر العباسي .
دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٨٠ م .
- * رينولد . أ . نيكولسون .

٢٠ - في التصوف الإسلامي وتاريخه (ترجمة أبو العلا عفيفي) .
لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة (١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م) .

* الدكتور / سليمان دنيا (رحمه الله) .

٢١ - التفكير الفلسفي الإسلامي .

مكتبة الخانجي - بمصر (١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م) . توزيع مكتبة الرشاد بالدار
البيضاء - المغرب .

٢٢ - الحقيقة في نظر الغزالي .

دار المعارف بمصر ١٩٧١ م .

* طه عبد الباقي سرور .

٢٣ - الغزالي .

سلسلة (اقرأ) رقم ٣١ . دار المعارف بمصر - ديسمبر ١٩٥٥ م .

* د . عبد الرحمن بدوي .

٢٤ - مؤلفات الغزالي .

وكالة المطبوعات - بالكويت ١٩٧٧ م .

* د . عبد الحليم محمود . الأستاذ الأكبر .

٢٥ - التفكير الفلسفي في الإسلام .

مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة - ١٩٦٤ م .

* د . عبد العظيم الديب .

٢٦ - الغزالي وأصول الفقه

(بحث منشور بالكتاب التذكري) بعنوان : الإمام الغزالي - الذكرى المئوية التاسعة

لوفاته (. جامعة قطر - الدوحة (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م)) .

٢٧ - إمام الحرمين (حياته وعصره - آثاره وفكره) .

دار القلم - الكويت - (١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م) .

* د . عبد الفتاح عبد الله بركة .

٢٨ - الإمام الغزالي وتوجهه الاجتماعي .

- (بحث ضمن الكتاب التذكارى بعنوان : الإمام الغزالي - الذكرى المئوية التاسعة لوفاته) . جامعة قطر - الدوحة (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م) .
- ٢٩ - في التصوف والأخلاق .
دار القلم - الكويت (١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م) .
- * إمام الحرمين الجويني عبد الملك بن عبد الله بن يوسف .
٣٠ - الغيائي (بتحقيق د . عبد العظيم الديب) .
مكتبة وهبة - ودار التراث - القاهرة - ١٤٠١ هـ .
- * د . عبده الشهابي .
٣١ - دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية .
دار صادر - بيروت (١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م) .
- * السبكي : تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي .
٣٢ - طبقات الشافعية الكبرى (بتحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلوي) .
مطبعة عيسى الحلبي وشركاه - القاهرة (١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م) .
- * د . عماد الدين خليل .
٣٣ - حول إعادة تشكيل العقل المسلم .
سلسلة كتاب الأمة رقم ٤ (سلسلة فصلية تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية بدولة قطر) . الدوحة - رمضان ١٤٠٣ هـ .
- * د . محمد علي أبو ريان .
٣٤ - تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام .
دار المعرفة الجامعية - بمصر - الإسكندرية - ١٩٨٣ م .
- * د . محمود قاسم .
٣٥ - الإمام عبد الحميد بن باديس .
دار المعارف بمصر - ١٩٧٧ م .
- ٣٦ - دراسات في الفلسفة الإسلامية .
دار المعارف - بمصر ١٩٦٧ م .

عَنْ عِيَّاضِ بْنِ حَمَّادٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ
عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْتَغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ . . . رواه مسلم وأبو داود وابن
ماجه .